المجتمع المصرى عرضة للانحلال

لتعدد سمات التربية وسمات الثقافة

لحضرة صاحب المعالى محمد عبد الجليل أبو سمرة باشا

وزير الشؤون الاجتماعية

وحدة الدم ، ووحدة التربية ، ووحدة الثقافة . هذه هى المقومات الأولى للشعوب ، والعرى التى تمسكها من الانحلال والتفرق . وقد شاهدنا فى الحرب الحالية كيف نفذ الألمان من خلال تعدد العناصر فى دول شرق أوربا الى تمزيقها أو احتلالها أو تهديدها ، كما هو حاصل فى تشيكوسلوفاكيا ورومانيا ويوجوسلافيا .

ونحن فى مصر مطمئنون من ناحية وحدة الدم ، لأن الريف المصرى سليم ، وهو يصهر مختلف الأجناس والعناصر التى تصب فيه ، ويحيلها عنصرا واحدا متشابه السمات . ولكن وحدة الدم بمفردها لا تغنى حين تتعدد سمات التربية وسمات الثقافة ، وتتباين — تبعا لهذا — مقومات الشخصية الفردية والاجتماعية .

على أن الاطمئنان إلى وحدة الدم ينبغى أن ننظر اليه بشىء من القصد والحذر . فهذه الوحدة أصبحت مهددة الى حد ما ، فى المدن على الأقل ، لشدة الاختلاط بالزواج بين عناصر مختلفة ، ويجب أن ننتبه الى هذا الخطر الذى يضاعفه تعدد البيئات وتعدد الثقافات وانعدام الوحدة بينها ولو فى مرحلة من المراحل .

وإن الباحث الاجتماعى ليشعر بالهول والرهبة حين يستعرض عشرات البيئات وعشرات الثقافات التى تشترك فى تكوين مقوماتنا الشخصية والعقلية ، وحين يرى كلا منها يستقل فى إخراج قسم من الشعب لا تربطه بالأقسام الأخرى صلة إلا صلة الحياة فى حدود جغرافية واحدة ، وإلا التمتع — من الوجهة القانونية — بجنسية واحدة .

والحق أن الأجناس التى يتألف منها هذا الشعب كثيرة متفرقة : ففيها المصرى والتركى والعربى والكردى والشامى والمغربى والسودانى والحبشى ، وفيها غير ذلك كثير . وهى الأجناس التى يتزوج منها المصريون فيعقبون نسلا يتربى فى منزل تشرف عليه الأم التى تطبعه بطابعها الذى استمدته من أصلها وبيئتها وثقافتها .

وهذه الأجناس تتقارب أصولها أو تتباعد ، ولكن بينها اختلافا فى الدم لا شك فيه ، واختلافا فى البيئة المنزلية لا شك فيه أيضا ، واختلافا فى الأهواء والميول تبعا لهذا وذاك وتبعا لاتجاه الثقافات الذى سأتحدث عنه بعد قليل .

فاذا نحن تجاوزنا الأجناس التي يرجع اليها الاباء أو الأمهات ، وانتقلنا الى أجناس المربيات فى لبيوت الغنية — ونحن نهتم بهذه الطبقة لأن القوة المادية تمكنها من القوة المعنوية وتجعل فى يدها مقاليد الحكم والثقافة والتوجيه فى أحيان كثيرة — فإننا واجدون هناك مربيات فرنسيات وانجليزيات وأمريكيات وإيطاليات وألمانيات وأسبانيات وتركيات وحبشيات وسودانيات وغير ذلك .

وهذا التعدد فى أجناس المربيات ينشئ لنا نوعا آخر من البلبلة فى البيئات المنزلية التى تسيطر على الطفل فى أطوار نموه الأولى التى تكمن فيها معظم مكونات الشخصية وتلاحق هذا الطفل فى كل أدوار حياته ، وتوجه عاداته وأخلاقه وسلوكه .

ثم نخطو خطوة الى الثقافات المدرسية ، ونحن نشفق على القارئ من الدخول الذى يصيبه وهو يلاحق هذه الأنماط المتباينة والمتقاربة التى لا عداد لها .

ففينا من تعلم فى المدارس الابتدائية ، وتدرج منها الى الثانوية فالعالية أو الجامعة ، أو منها الى المدارس الفنية والصناعية والمتوسطة ، تعليما مدنيا مختلف الفروع متحد الأصول الى حد ما .

وفينا من تعلم فى الأزهر أو أحد فروعه تعليما دينيا نرى الى جانبه قليلا من التعليم المدنى .

وفينا من تعلم فى دار العلوم تعليما وسطا بين المدنى والدينى ، ولكنه شيء آخر غير هذا وذاك فى اتجاهاته ومقوماته .

وفينا من تعلم فى المدارس الأولية ، فمدارس المعلمين تعليما قليلا له سمات غير ما تقدم جميعا .

وفينا من تعلم فى " كتاب " القرية أو المدرسة الالزامية ووقف عند هذا الحد .

ثم فينا من تعلم فى أحد المعاهد العالية أو الفنية أو الصناعية أو المتوسطة ولم يذهب الى أوربا وأمريكا . ومن تعلم كهؤلاء ثم ذهب الى انجلترا ، أو ذهب الى فرنسا ، أو ذهب الى ألمانيا ، أو ذهب الى إيطاليا ، أو ذهب الى سويسرا ، أو ذهب الى أمريكا . وعاد كل واحد من هؤلاء بثقافة وعقلية وربما بشخصية متأثرة الى حد كبير بالبلد الذى عاش فيه .

وفينا من تعلم هنا فى مصر فى مدارس فرنسية ، أو مدارس انجليزية ، أو مدارس أمريكية ، أو مدارس يونانية ، أو مدارس إيطالية ، أو مدارس ألمانية . وبين هؤلاء من درس فى أقسام هذه المدارس الخاصة وهى تؤهل لشهادات أجنبية ، ومن درس فى أقسامها المصرية وحصل على شهادة مصرية . ولكن هؤلاء وهؤلاء تأثروا بالعقلية و بالبيئة التى تسود هذه المدارس وهى غير العقلية المصرية والبيئة المصرية على كل حال . و بعض هؤلاء وهؤلاء اكتفى بالدراسة فى هذه المدارس ، و بعضهم سافر لإتمام تعليمه فى البلاد التى تتبعها و بعضهم واصل دراسته فى الجامعة أو المدارس المصرية الأخرى .

وفيما بعد هذا كله من لم يتعلم أصلا ومن عاش لا يسمع عن العالم شيئا .

فاذا نحن حاولنا استخراج النتيجة المنطقية من كل ذلك أذهلتنا كثرة الاتجاهات العقلية والنفسية والاجتماعية والعاطفية التى تتقاسم هذا الشعب تقاسما تستحيل معه الوحدة التى يجب أن تتوافر فى كل شعب من الشعوب .

هذا ولم نذكر اختلاف الأديان ، ولا اختلاف الطبقات ، ولا اختلاف البيئة الريفية والبيئة المدنية . ولم أذكر كذلك اختلاف القوانين واختلاف المحاكم التى كان يخضع لها سكان الوادى فقد كفانا إلغاء الامتيازات شر هذه الاختلافات الى حد ما .

* * *

هذه صورة رهيبة للمجتمع المصرى الذى طالما اطمأننا إلى وحدته وتماسكه ، وهى خليقة أن تبعث فى نفوسنا القلق والحذر ، وأن تنبهنا إلى شىء نعمله لوقف عوامل التفرق والانحلال . ولا يجوز أن تكون سلامة الريف — إلى حد كبير — داعية إلى التهاون أو الاطمئنان الكاذب . فالريف إذا كان قلب الوطن فإن المدينة هى رأسه ، والرأس هو المفكر والموجه للجسم جميعا .

وقد اشتركت فى هذه البلبلة عدة عوامل بعضها طبيعى أو تاريخى أو سياسى لا حيلة لنا فيه ، وبعضها حاضر بين يدينا ومن صنع أنفسنا نستطيع دفعه وتحويره .

فأما العوامل الطبيعة فموقع مصر الجغرافى فى حوض البحر الأبيض المتوسط بين الشرق والغرب ، وفى طريق الفاتحين واللاجئين من هنا ومن هناك ، ومناخها الذى يجلب اليها السائحين وطبيعتها التى تغرى بعضهم بالإخلاد والاستيطان .

وأما العوامل التاريخية والسياسية فهى الاحتلال التركى لمصر نحو خمسمائة عام ، وقد كان هذا أشد أثرا من كل احتلال سابق ، لأن الدولة العثمانية كانت امبراطورية تجمع شتى الأجناس والعناصر ، وكلهم يتمتع بالرعوية العثمانية المشتركة ، فكانت مصر — بسبب موقعها فى هذه الامبراطورية — معسكر لقاحات لهم جميعا ، وكانت فى هذا أكثر من تركيا انحلت ذاتها .

ولقد كان هذا التكوين نفسه من أهم عوامل الانحلال فى الامبراطورية العثمانية ، فلما تفرقت بقيت آثارها فى مصر كاملة .

ولقد حدث مثل هذا من قبل فى الامبراطورية العربية يوم فتح العرب ممكلتى كسرى وقيصر ، ولكنها تماسكت حينا من الدهر لتوحد الثقافة فيها — على الرغم من تعدد الأجناس — فلقد كانت ثقافتها قائمة على الدين واللغة المشتركين بين الجميع ، وكان الأدب العربى والشعر

العربي يدرسان في كل مكان حتى لمخالفي العرب في العقيدة من شتى الأديان في الامبراطورية. ومع هذا فقد تحطمت الامبراطورية العربية على الصخرة التي تحطمت عليها الامبراطورية العثمانية بعد ألف عام.

ثم كانت لامتيازات الأجنبية — وهي أثر من آثار الحكم التركي — سببا آخر من أسباب هذه الفروق بما أتاحته للأجانب من ألوان النشاط الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي بلا رقيب ولا التزام باحترام القومية المصرية والمشخصات الوطنية، وساعدت الظروف السياسية بعد الاحتلال الانجليزي هذه العوامل في نصف القرن الأخير.

وعلى أية حال فقد انقضى هذا الماضي بخيره وشره، وإذا لم تكن لنا حيلة في التاريخ والطبيعة، فإن لنا الحاضر والمستقبل؛ فلننظر فيما بين أيدينا من الأسباب.

لاحظت فيما تقدم أن أهم أسباب هذه الاختلافات هي التزاوج والتربية المنزلية والثقافة المدرسية. وأنا أكره أن أتدخل في شؤون الأفراد عندنا بتدخل الأولى في حرية الآخرين وكفهم عن الزواج بالأجنبيات أو استخدامهن مربيات، وإن كان ذلك ضروريا في بعض الحالات كما صنعت مع موظفي السلك السياسي.

ولكني أناشد الوطنية في نفوسهم أن يشفقوا على شعبهم من هذه النبلة، وأن يبقوا على وحدته العنصرية والعصبية والنفسية. فالواقع أن بين أبناء المتزوجين بأجنبيات من هم مصريون بالاسم؛ ولكن هواهم وتحمسهم جميعا إلى أممهم، وبعضهم يحتقرون المصرية والمصريين احتقارا، وبعضهم لا يحتقرون ولكنهم لا يستطيعون تفاهم مع الوسط المصري فيضطرون إلى الاندماج في الأوساط التي تنتمي إليها أمهاتهم بحكم نشأتهم في بيئة خاصة لا يعرفون سواها ولا يستطيعون معرفته.

وأما ما تملكه الدولة فهو الثقافة المصرية التي تمكن لها من الوحدة في مرحلة من مراحل التعليم، وهو اللغة القومية التي تضمن لها السيادة في كل مرافق الحياة. فلننظر في هاتين المسألتين:

لقد استعرضنا فيما مضى تلك الألوان التي لا تنتهي من المدارس والدراسات، ولا اعتراض لنا على تنوعها وتفرعها في ذاتها، فقد يكون من الخير لمصر — ملتقى الشرق والغرب — أن تم بثقافات أممها جميعا.

ولكن الحرص على وحدة هذا الشعب يحتم اشتراك كل مصري في مرحلة من مراحل الثقافة يجب أن يلم بها التلميذ في أية مدرسة وأية دراسة، ثم يدرس بعدها كيفما شاء، وعلى أي نظام أراد. هذه المرحلة نريد أن تكون بوتقة تنصهر فيها الجميع فيتفقوا على أساسها في نقطة من النقط.

وهذه المرحلة نرى أن تكون معادلة لمرحلة التعليم الابتدائى — فيما عدا اللغة الأجنبية — ويجب أن تشمل الدراسة فيها اللغة القومية وجغرافية مصر وتاريخها على وجه التفصيل مع إبراز عصور النهضة وشخصيات الأبطال فى الدراسة التاريخية، وقسطا من المعلومات العامة والرياضيات .

يستوى فى هذه الدراسة من يتعلمون فى الأزهر ومن يتعلمون فى دار العلوم ومن يتعلمون تعليما مدنيا خالصا فى جميع مدارس الدولة . ويستوى فيها كذلك من يتعلمون فى المدارس الأجنبية على اختلافها .

ويجب أن تشرف الدولة على هذا القسم فى كل دور العلم التى تقوم به، لا فرق فى ذلك بين مدارس مدنية أو دينية أو أجنبية ، لتضمن بهذا الإشراف جدية التنفيذ . ولا يجوز أن تسمع عذرا فى هذا أو تقبل حجة ، لأن ذلك عمل من أعمال المحافظة على سلامة الدولة ألزم من أعمال الدفاع الحربى فى الميادين .

والحرص على وحدة الشعب الثقافية يحتم الحرص على وحدته اللغوية كذلك . ولن تنتهى مهمة الدولة عند رعاية اللغة القومية فى المدارس جميعا، بل يجب أن ترعاها فى خارج المدارس كذلك . وإنه لعجيب أن تظل الشركات الأجنبية ودوائر الأعمال تهمل اللغة القومية فى معاملاتها فيجب أن يوضع حد لهذا الإهمال .

وقد خطت اللجنة المالية فى مجلس النواب خطوة مشكورة حين أضافت إلى قانون ضريبة الأرباح الاستثنائية مادة تحتم على الشركات الأجنبية تقديم حساباتها لإدارة الضرائب باللغة العربية ، مما دعا الحكومة إلى العزم على مطالبة هذه الشركات بإمساك دفاتر عربية .

ولكن هذه وتلك خطوات متواضعة فى نظرنا فيجب أن تكون جميع الأعمال وجميع المخاطبات والعقود بين بعض هذه الشركات وبين الجمهور المصرى ، أو بينها وبين المحاكم فى القضايا التى تثيرها صلاتها بالأفراد أو بالحكومة — بغة البلاد التى تعيش فيها وتكسب منها أرباحها . كما يجب أن تكتب المتاجر ودور أسبتها وسواها أسماءها وأسماء بضاعتها أو لغة أعلامها باللغة القومية ، بلا تسامح ولا إمهال .

إن لهذه المسألة شقين كلاهما ذو علاقة بكيان الشعب ووحدته . وأما الشق الأول فهو احترام القومية المصرية وبروز معالمها فى كل ما تقع عليه العين أو تسمع به الأذن، ولهذا أثره فى تمكين هذه المظاهر وتقويتها فى النفوس وإدماجها فى وحدة يتسم بها الجميع .

وأما الشق الثانى ففسح مجال العمل فى الشركات ودوائر الأعمال الأجنبية للشباب المصرى ، وبهذا تتمصر هذه الشركات والدوائر شيئا فشيئا ، وتنسجم مع الوحدة الوطنية فى لغتها وسمتها وطرق معاملاتها ، فلا تبقى هكذا دولة فى داخل الدولة .

* * *

لقد تعددت الأجناس فى أمريكا وبخاصة فى الولايات المتحدة بحكم الهجرة إليها فصار شعبها يتألف من عناصر كثيرة ، كالذى حدث فى مصر ، ولكنها استطاعت — مع هذا — أن تصهر هذا الشتيت المتجمع فيها ، وتحيله عنصرا واحدا له مميزات وسمات وطابع خاص أمريكى .

وكانت وسيلتها إلى هذا إخضاع الجميع لنظام حكم واحد ، ولثقافة واحدة ، ولتقاليد واحدة فلم يمض قرن من الزمان حتى تناسات هذه العناصر المختلفة ، وتوارت الفروق بين بعضها وبعض وإذا الجميع أمريكيون يتميزون بطابعهم الجديد .

وقد يقال أن الاستقلال الأمريكى وحرية التشريع اللذين لم يصابا بنظام الامتيازات الأجنبية قد جعلا القوم هناك أخف عبئا منا فى مصر . ولكن هانحن أولاء قد حصلنا من الاستقلال على ما يسمح لنا بحرية التشريع إلى حد كبير ، فيجب أن نسلك طريق أمريكا فى صهر العناصر والثقافات التى تعج بها مصر حتى تعود ولها طابع واحد ممتاز .

وقد لا نملك التحكم فى البيوت إلا بمناشدة الوطنية فى الصدور ، ولكننا نملك التحكم فى المدرسة والمجتمع عن طريق التشريع والسهر على التنفيذ . فلنفعل ، وإنا — إن شاء الله — لفاعلون ما

محمد عبد الجليل أبو سمرة